

الأثر الخلدوني في الدراسات المعاصرة للحضارة مالك بن نبي نموذجا

د. بدران بن الحسن

جامعة ماليزيا

تهدف هذه الورقة إلى تأثير ابن خلدون والفكر الخلدوني في دائرة دراسات الحضارة على مالك بن نبي. وبشكل خاص، فإن هذه الدراسة تهدف إلى تحليل المساهمة الخلدونية في دراسة الحضارة وأثرها على مقاربة مالك بن نبي في دراسة الحضارة. وتصل الدراسة إلى نتيجة ترى من خلالها أن أهم ما أثر به ابن خلدون في ابن نبي هو منهج ابن خلدون في التفكير، ومقارنته بشكل عام في دراسة الحضارة، وكذلك فكرة الحركة الدورية للحضارة. هذه الأخيرة التي ساعدت بن نبي على بناء تصوره في وجود أسباب وسنن في التاريخ وعلى إدراك ظاهرة انتقال الحضارة.

*

* *

بالدراسة سواء أكانوا من المؤرخين، أو علماء الاجتماع، أو الثرولوجيين، أو الفلاسفة، الذين تناولوا بتوسع قضايا مثل أسباب قيام وسقوط الحضارات والمواضيع المتعلقة بها. ومن بين هؤلاء ابن خلدون وكونت وتويني وسوروكين وكروبر وبرودل وغيرهم.

وفي العالم الإسلامي، ومنذ بدايات القرن العشرين، ظهرت جهود لتتبع التاريخ من منظور حضاري، وكان من بين أول من عمل على هذا المنظور العلامة الجزائري مالك بن نبي (1905-1973) الذي يعتبره كثير من الدارسين أنه باعث الخط الخلدوني في الفكر الإسلامي المعاصر، وفي دراسة الحضارة وفلسفة التاريخ.

واعتبر بن نبي واحدا من المفكرين الأصلاء الذين قدموا مساهمات منهجية

لقد مثل مقال صامويل هانتجتون بعنوان (صدام الحضارات) في 1993 إعادة طرح لموضوع الحضارة بين أوساط المثقفين والباحثين في العالم. كما أن هذا المقال أعطى دفعا لجهود الفلاسفة السابقين والعلماء لتأسيس حقل دراسات الحضارة باعتباره حقلا بحثيا مستقلا.

كما أن هذا المقال أعطى الأهمية لدراسة الحضارات في فهم التغيرات العالمية بالرغم من أن الحضارة باعتباره وحدة للتحليل قد تم استبعادها من قبل الأوساط الفكرية ودوائر التحليل السياسي إلى وقت قريب.

في هذا السياق فإن كثيرا من الباحثين والعلماء دعوا إلى إعادة النظر، بل ودراسة أعمال المفكرين الذين تناولوا الحضارة

بل إن البعض يعتبره كاتباً ومفكراً وربما أول فيلسوف اجتماعي وعالم اجتماع يعرفه العالم الإسلامي منذ عصر ابن خلدون. والبعض الآخر يعتبره فيلسوفاً ومنظراً كان اهتمامه الأول والرئيس البحث في مشكلة تخلف العالم الإسلامي مما دفعه إلى البحث في أسبابها وسبل تحقيق النهضة.

وبالرغم من أن بن نبي كان حقلاً لكثير من الدراسات، فإن الاهتمام بالجذور المعرفية والمنهجية لأطروحاته في دراسة الحضارة لم تلق العناية الكافية، وخاصة في صلة بن نبي بابن خلدون في مستوى الرؤية والمنهج والمفاهيم وكذلك في مجال الدراسة. ولذلك فإن هذه الدراسة اتجهت إلى البحث في هذه الجذور المعرفية والمنهجية، وكذلك دراسة الأثر الخلدوني في مالك بن نبي في موضوع محدد، وهو موضوع الحضارة.

واعتمدت هذه الدراسة، من أجل تحقيق هدفها، على تناول أهم ما ساهم به ابن خلدون في دراسة الحضارة وكيف أثر ذلك في مقارنة بن نبي في دراستها.

وكان الاهتمام بمدى أهمية ما قام ابن خلدون بتأسيسه، وهو على العمران أو علم دراسة الحضارة كما ذهب إلى ذلك ريتزر والحصري ولاكوست وخليفة وريختر وغيرهم، وكيف أحدث ابن خلدون التحول في دراسة قوانين التغير التاريخي والاجتماعي، وكيفية تحديده لوجود سنن تحكم عملية التغير. فمع المقدمة نقل ابن خلدون الاهتمام

منظمة في بحثه عن القوانين التي تحكم حركة الحضارة في التاريخ. وكانت الحضارة بالنسبة إليه الوحدة الأساسية للتحليل ونقطة انطلاقه في دراسة الوضع الذي يعيشه العالم الإسلامي. كما أنه ركز جهده المعرفي والعملية على بناء منهج ومقاربة واضحة لحل مشكلات التخلف الحضاري في العالم الإسلامي كما يؤكد ذلك كثير ممن درسوا تراثه الفكري.

وارتكز في دراسته للحضارة على وعي عميق بالإسلام، وإطلاع على ما توفره العلوم الاجتماعية من أدوات، وإدراك لحركة المجتمع وسنن التاريخ. مما مكنه من تقديم مقاربة جديدة بالاهتمام فيما يخص ديناميكية حركة المجتمع والثقافة والحضارة وآليات وسنن عملها من منظور متميز، هو المنظور الحضاري.

والمطلع على تراثه الفكري يجد أن أطروحة بن نبي نتاج لعمله النقدي لكثير من العمال العلمية التي سبقتها، مما أهله لناء نسق تفكير ومنظور دراسة لا يكرر سابقه ولا ينفصل عنهم معرفياً ومنهجياً بشكل كامل. وهذا يدعونا إلى النظر في ما يشترك فيه بن نبي مع الوجوه الأخرى المعروفة من دارسي الحضارة ورواد الفكر الحضاري، وفي هذا السياق، فإن كثيراً من دارسي تراث بن نبي الفكري يؤكّدون على خلدونيته وعلى استفادته من تراث العلامة ابن خلدون.

الجديد الذي استعمله ابن خلدون في النظر إلى التاريخ الذي رآه، ليس حوادث متتابعة فحسب، بل ربط التاريخ بفكرة السببية.

ومما يعتريه ابن نبي ريادة خلدونية هو فكرة ابن خلدون في الظاهرة الدورية، وإن كانت الفكرة قد غطى عليها المصطلح (الدولة) الذي حدّ من عمق فكرة ابن خلدون في دراسة الحضارة. كما أنه بالرغم من أن فكرة (العصية) تبدو ضيقة إلا أنها أسست للنظر إلى فكرة انتقال الحضارة ودوريتها. ولهذا يؤكد بن نبي أن فكرة الدورة تفتح الباب لفحص مسار الحضارة في صعودها ونزولها، ولا تسمح بالنظر في مسار التطور فقط، بل أيضا أسباب الأفول، بالرغم من إن ابن خلدون لم يصغها في منهج كامل لدراسة ظاهرة الحضارة.

ولهذا يمكن القول أن أثر ابن خلدون على ابن نبي يتجلى في جانبين؛ فمن جهة تأثر بالنسق العام لخط التفكير الخلدوني، والمنهج العام في النظر إلى عملية التغير التاريخي وبحته عن قوانين عامة تحكم سير الحضارة. ومن جهة أخرى، فإن ابن نبي يختلف عن ابن خلدون في نقاط كثيرة.

فبينما يجعل ابن خلدون من الدولة وحدة الدراسة، فإن بن نبي يعتبر الدولة منتج حضاري، بل ينبغي أن نستعمل الحضارة ذاتها وحدة لدراسة التاريخ.

كما أن ابن خلدون يحدد مجال زمني لعمر الدولة، في حين أن بن نبي مفتوحة

بالتاريخ من مجرد تاريخ تسجيلي إلى بحث في تفسير أسباب تبدل العمران وتغير الحوادث واكتشف منهجيا ومعرفيا ظاهرة التداول.

كما حاولت الدراسة تناول المفاهيم التي صاغها ابن خلدون لدراسة الحضارة مثل مفهوم الدولة والمملكة كوحدات للدراسة، ومفهوم الدورة التاريخية ومراحل أو أعمار أو أجيال الدولة، واكتشافه لقانون التغير في حركة الدول والممالك والمجتمعات، وتلك النظرة العضوية لأعمار المجتمع والدولة.

ثم مفهوم العصية الذي قام ابن خلدون بينائه والذي على أساسه يتم التوحد حول جهد بناء الدولة وتتعاقد الأجيال وفق وضعية العصية. وكيفية عمل العصية على أساس وازع من الدين أو النبوة كما ذكر ابن خلدون.

بعد ذلك انتقلت الورقة إلى تناول كيفية تأثر بن نبي بالتراث الخلدوني، حيث أثبتت الدراسة أن المقدمة كانت مصدرا مهما للمالك بن نبي على مستوى الرؤية والمنهج والأفكار والمفاهيم وكذلك المادة التاريخية ذاتها.

يعترف بن نبي أنه تأثر بابن خلدون، وأن مقدمته تمثل أول جهد في التاريخ لدراسة ظاهرة الحضارة والنظر إليها بعين التحليل. فابن خلدون -حسب بن نبي- اكتشف منطق التاريخ والحركة التاريخية، وهو المؤسس الفعلي لعلم الاجتماع العربي وفلسفة التاريخ وخاصة فكرة الدورة الحضارية، وفي المنظور

مركزية وحضور الدين في حركة الحضارة الإنسانية. وهذا أدى به إلى وضع مفهوم الفكرة الدينية باعتبارها القوة المحركة لمسار الحضارة.

والنقطة الأخرى التي يختلفان فيها، هي فكرة الحتمية في حركة الحضارة. فكما يبدو من تحليل تراث ابن خلدون أن النظرة العضوية لحركة الحضارة من خلال تشبيه حركة الدولة وأعمارها بأعمار الناس أنه كان يرى حتمية حركة الدولة وأن الظاهرة الدورية لها نهاية حتمية. ولذلك جعل من الحضارة نهاية العمران البشري ونهاية التطور في عمر الدولة، وأنها نهاية لا يمكن الفكك منها. هذه النظرة العضوية جعلت من ابن خلدون يماثل بين عمر الفر وعمر الدولة بالرغم من أن المدة قد تختلف. لكن المجال الزمني المحدد بالأجيال رأى ابن خلدون أنه حتمي وأن كل دولة تخضع له.

ولنختتم هذه الورقة، نرى أن بن نبي بالرغم من بعض الاختلافات عن ابن خلدون إلا أنه يرى أن المنظور والمفاهيم وخط التفكير الخلدوني أو النسق الخلدوني في الفكر يشكّلان رصيда مهما بالنسبة له، ويعتبر نفسه امتدادا له، وتطويرا له وإثراء بما توفرت عليه المعرفة البشرية في عصرنا من فتوح في مستوى الكم المعرفي، والمناهج، والأدوات، والمفاهيم^(*).

ويركز على الجانب الديناميكي والطبيعة الانتقالية للحضارة.

والفكرة التي يبدو بن نبي متأثرا فيها بابن خلدون هي القوة المحركة التي تعطي ميلادا لمسار التحضر بالرغم من اختلاف معناها عند كل منهما.

فابن خلدون يرى أن الحضارة في حركتها التاريخية تخضع لقوانين ثابتة سماها (طبائع العمران) تحكم سير الحضارة، ولذلك فإن التغيرات التاريخية فيها لها قوة محركة أو محفزة سماها (العصبية) وهي رابطة نفسية شعورية تربط بين أعضاء المجموعة وتقوم على القربة أو الأمر العام من الدين أو النبوة بحسب التعبير الخلدوني.

لكن بن نبي يستعمل فكرة (الفكرة الدينية) التي طورها من خلال دراساته للقرآن، وللوثائق الأنثروبولوجية والتاريخية، والبحوث الأركيولوجية، التي كلها تؤكد في حين يرفض بن نبي هذه النظرة الحتمية، لأن الظواهر الاجتماعية ليست كالظواهر الفيزيائية. وبالرغم من أن الظاهرة الاجتماعية التاريخية محكومة بسنن، إلا أنها لا تضع أمامنا حتمية نهائية مطلقة. ولكنها تضع أمام الإرادة الإنسانية نوعا من التحدي الذي ينبغي أن يستجيب له بفعالية ليتمكن من تحرير نفسه من النظرة الضيقة لقانون السببية.

(*) أنظر نصّ المقال كاملا في القسم الفرنسي، ص 45-47.